دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الفكر السياسي عند كافافيس
المصدر:	فصول
الناشر:	الهيئة المصرية العامة للكتاب
المؤلف الرئيسي:	غالي، وائل
المجلد/العدد:	مج 11, ع 4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1992
الشهر:	شتاء
الصفحات:	308 - 316
رقم MD:	374815
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الدراسات الادبية ، الفكر السياسي ، كافافيس ، الادباء اليونانيون ، الفكر اليوناني ، النقد الادبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/374815

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفكر السياسى عند كافافيس

وائل غالى

أصدرت دار « الآداب الجميلة الفرنسية Les Lettres Francaises ذات المستوى العلمى والأدبى الرفيع ، عام ١٩٨١ ، ضمن مجموعة كتب « السلسلة الهلينية الجديدة » كتابا للباحثة اليونانية مارينا ريسفا المتخصصة فى العلوم السياسية تحت عنوان (الفكر السياسى عند كافافيس) وهى الدراسة التى تقدمت بها لنيل دبلوم الدراسات العليا فى العلوم السياسية من جامعة القانون والاقتصاد والعلوم الاجتماعية (جامعة باريس ٢) تمهيدا لرسالة الدكتوراه التى تعدها حول الفكر السياسى فى المآسى اليونانية القديمة . وهى تشغل الآن منصبا مهما بالمكتب الثقافى التابع للسفارة اليونانية فى باريس .

ولكى تقوم بمهمة الحفر فى جذور الفكر السياسى عند كافافيس اطلعت الباحثة على نصوص كافافيس نفسها فى اللغة اليونانية ، وعولت على جملة من المراجع الأساسية حول الاحتلال البريطانى لمصر ، وحياة كافافيس فى مصر ، والشعر اليونانى الحديث ، ومصر الحديثة ، وغيرها من المراجع فى اللغة اليونانية والفرنسية والإنجليزية التى تشمل الأدب والتاريخين القديم والحديث .

وخصصت ريسفا الجانب الأكبر من دراستها الغنية لأفكار كافافيس السياسية ، ولم تقف قط عند قيمة أعماله من الناحية الأدبية والفنية ، ولم تظهر ما يتعلق بحساسيته الجمالية ، أو ما يخص البعد النفسى لتكوينه ولوجدانه .

واعتمدت الباحثة على تعريف للسياسة صاغه الشاعر أودن W. H. Auden يعبر عن توجه كافافيس العام فى نظرته إلى السياسة .

والتعريف يعاصر فكر كافافيس حينا ، ويضرب فى جذور الفكر اليونانى القديم حينا آخر . فالسياسة عنده تضاهى « الفضيلة » بالمعنى السائد فى العهد الكلاسيكى والقرن الثامن عشر التنويرى وخصوصا مونتسكيو ، وتشاكل مفهوم « آلان » (١٨٦٨ - ١٩٥١) الفليسوف الفرنسى المعاصر ، كما أورده ضمن كتابه الكلاسيكى شبه المدرسى (مدخل إلى الفلسفة) : إن السياسة علاقة معقدة بين الإنسان والإنسان الآخر . تبادل بينهما وتجارة . ويقوم المجتمع على مجموعة من الأفعال وردود الأفعال وعلى توفيق مركب من علاقات القوى .

على أن شاعر الإسكندرية قد أدرك مبكرا أن السياسة ليست على هذا النحو التجريدى الخالص ، وأن عصره يحكمه حكام

فاسدون ، فآثر العودة إلى الزمن الهلينى حينا وإلى العهد البيزنطى حينا آخر ، شاعرا بأن السبب فى انهيار المجتمع اليونانى الذهبى القديم هو قيام النظم الملكية المستبدة وسياسة القمع التى فرضت على « الحرية اليونانية » إقامة جبرية داخل النفس ، بمنأى عن شوائك الصراع السياسى والكفاح السياسى .

ودهشت السيدة ريسفا لما قيل حول الشعور الوطنى لدى كافافيس . وكان البعض قد اعتبره شعورا وطنيا حادا مبالغا فيه ، وذهب فى ذلك إلى حد التطرف الشوفينى . أما البعض الآخر ، فروج لفكرة غريبة جوهرها أنه يؤمن بشىء اسمه « العنصر اليونانى » تم إطلاقه على نسق النموذج النازى أو الفاشى أو غيرهما من النماذج العنصرية .

والصواب فى تصور ريسفا أن ما يكمن وراء حماسة كافافيس الحقيقية الصادقة الفنية للوطن هو شعوره الدقيق بانحلال الأمة اليونانية . ونستطيع قراءة شعوره الوطنى فى الفلسفة التى جاء بها ايسوقراطيس Isocrate (٤٣٦ - ٣٣٨ - قبل الميلاد) فى عصر الوحدة اليونانية الكبرى . فقال : « إننا نعتبر المرء يونانيا حينما يشاركنا ثقافتنا » .

وبالتالى ، يبدو من العسير أن نرفع رايات العنصرية ، أو العرقية فى وجه كافافيس . ويبدو ذلك خروجا تاما على الموضوع وخروجا كاملا على جوهر الفكر السياسى عند كافافيس ومضمون إبداعه الفنى والأدبى عموما .

وإذا اطلعنا على أحدث ما أضافته العلوم السياسية الغربية إلى مجال التحليل الدقيق ، سندرك فاصلا واضحا تقيمه تلك العلوم بين الوطنية من جهة ، وبين الشعور الوطنى من جهة أخرى ، وبين التطرف الوطنى والعنصرية من جهة ثالثة .

ففى حال كافافيس يجب أن نأخذ فى الاعتبار أنه كان أحد سكان أطراف البلاد اليونانية الذين يمتازون بروح وطنية قوية وبشعور وطنى حاد . أما هذه الحدة فى الشعور الوطنى فسببها التفوق الثقافى اليونانى على مستوى العالم وتفوق الحضارة اليونانية الموضوعى على كافة الحضارات الأخرى فى زمن من الأزمنة .

ولم يحزن كافافيس قدر حزنه من احتلال أجنبى من حضارات متأخرة أو منحلة لبلاده ، فتظهر خيبة أمله ويأسه من مستقبل وطنه .

ومما يولد السآمة والضجر فى نفس الباحثة اليونانية ، وأنفس العديد من القراء ، كثرة تكرار الناس والكتاب والمفكرين والنقاد لبعض الأحكام المسبقة حول الفكر السياسى عند كافافيس . فهم حينما يطالعون قصائده تروقهم الشخصيات التاريخية ويولعون بالأحداث التاريخية الغزيرة والغنية ولا يتحولون عن الظاهر إلى الباطن .

فشعر كافافيس يتسم بالسمات السياسية لا بالسمات التاريخية المألوفة بمعنى أنه يطابق « بين الأشياء المرئية (المراد من الأشياء المرئية الأشياء الجارية أمام العين المجردة ضمن مرحلة تاريخية تبدو أول وهله ضئيلة الأهمية) وبين الأشياء اللامرئية (والمراد من الأشياء اللامرئية تلك الأشياء السارية المفعول منذ قديم الأزل حتى اليوم ، ومن بين الأمثلة البينة مثال « الروح الهلينية ») .

وبالطبع ، ليست هى المرة الأولى التى نطالع فيها تلك الفكرة حول التطابق ، وإنما سبق فى اعتقادها بول فاليرى وسبق أن قال بها بودلير . وعلى هذا فما دور التطابق بين التاريخ الظاهر من جهة وبين السياسة الباطنة بداخل قصيدة « النوافذ » من جهة أخرى ؟

تقول القصيدة* :

« فى هذه الغرف المظلمة التى أمضى فيها أياما ثقالا ،
أروح وأغدو باحثا عن النوافذ .
عندما تتفتح نافذة سيكون هذا عزاء ، لكن النوافذ لا أثر لها ، أو أنى غير قادر أن أعثر عليها .
وربما كان من الأفضل ألا أجدها ، ربما كان النور عذابا جديدا ، من يدرى ، من أشياء جديدة ستظهر » .

تميز عام ١٨٩٦ أثناء كتابة هذه القصيدة بالانهيار الشامل لليونان أمام تركيا فى حربهما المستمرة .

* هذه الأبيات وغيرها مما سيرد ذكره من شعر كافافيس مأخوذ عن ترجمة نعيم عطية فى كتابه « كفافيس شاعر الإسكندرية » القاهرة ١٩٩١ .

أما النوافذ فترمز إلى انفتاح أفق سياسة عريضة ، وإلى العودة إلى الأحوال الحقة ، وتذكرنا بالطبع بأسطورة الكهف فى « جمهورية » أفلاطون حيث التدرج العسير من أدنى درجات المعرفة الحسية إلى الحق .

كما تشير هزيمة اليونان أمام الأتراك عام ١٨٩٧ فى البنيان الفنى للقصيدة على انغلاق الذات الشاعرة على نفسها ، مما يدفعنا إلى تسمية فترة ما قبل ١٩١١ بفترة « التقديس المرضى للأنا » . أما عام ١٩١٠ فيمثل تمثيلا دقيقا لتحول كافافيس من حال الانغلاق الذاتى إلى حال الانفتاح على الآخر . فقد تم سحب القوات الأوروبية من جزيرة كريت فى ٢٧ يونيه ١٩٠٩ ، ورفع العلم اليونانى ، وبدأ تاريخ الاستقلال اليونانى عن السيطرة التركية ، ووسط غضب شعبى كاسح تجاه مهادنة الحكومة الأثينية للقوى الخارجية برز ايلوفير فينيتربلوس Elevthére Venezèlos زعيما ليبراليا للمقاومة الباسلة .

فكتب كافافيس « عندما تخلت الآلهة عن أنطونيوس » .

«عندما تسمع فى منتصف الليل فجأة ، فرقة من المغنين تمر فى الطريق ، غير مرئية بموسيقاها الصاخبة ، بصياحها الذى يصم الآذان ، كف عن أن تندب حظك الذى ضاع ، وخطط حياتك التى أخفقت ، وآمالك التى أحبطت . دع عنك التوسلات غير المجدية .

كن كمن هو على أهبة الاستعداد من قديم . شجاعا جريئاً ودعها . ودع الإسكندرية التى ترحل .

وبالأخص ، حذار أن تخدع . لا تقل إن الأمر كان حلما ، وَهْما فى أذنيك وكذبا ـ آمال بالية مثل هذه لا تصدق » .

والمراد بالطبع من « الفرقة » الإشارة إلى فرقة « ماكوس » وفرقة الآلهة الثانوية التى تبدل حالها وانتقلت إلى صفوف العدو بعد وفاة أنطونيوس .

وتبدو شخصية أنطونيوس طاغية على مخيلة كافافيس فى هذه الفترة ، ذلك أنها رمز تاريخى لنهاية شخصية ساحرة فاتنة على نحو مأساوى أسود ، وهو ثانيا شخصية أنطونيوس وثيقة الصلة بالإسكندرية .

ومن المعروف أن أنطونيوس قد طلب فى عام ٤٢ قبل الميلاد من الإمبراطورية الرومانية السيطرة على الشرق . قصد من خلال ذلك الأساطير والأحلام المألوفة والكوابيس فى قلب الديكتاتوريات القديمة كافة ، وعشق كليوباترا ملكة مصر ونسى روما وأوكتافيوس عدوه السياسى ، وتجاهل الإستراتيجية الرومانية الكبرى وعاش فى مملكة وهمية نحتها بنفسه ولنفسه ؛ واقعها الوحيد السيطرة على مصر وفينيقيا والجليل وقبرص .

وصحيح أن أنطونيوس كان يعود من حين إلى آخر إلى إيطاليا ، لكن الإسكندرية كانت قد تحولت فى نظره إلى عاصمة العالم ، فاغتنم أوكتافيوس عدوه السياسى المشهور الفرصة ، وانقض على أسطول أنطونيوس فى معركة اكتيوم عام ٣١ قبل الميلاد ، فقضى على أنطونيوس تماما وسيطر على مصر .

والمراد من استلهام شخصية أنطونيوس فى قصائده إبراز الحاكم بعيدا عن الحكم وضياع السلطان بسبب العشق .

وهكذا انتقل كافافيس من « نوافذ » (١٨٩٧) الذات المغلقة إلى نقد فساد الحكام « عندما تخلت الآلهة عن أنطونيوس » (١٩١٠) ، من سلطان « الأنا » المرضى إلى انفتاح الأنا فى مواجهة « السلطان » الحاكم .

ففى قصيدة « إيثاكا » كذلك ، سنجد إلى جانب استحضار النموذج الأفلاطونى القديم فى « السياسة » و « النواميس » توكيداً واضحا على عسر الطريق السياسى ، وإيماءة إلى رحلة أفلاطون من أثينا إلى مكان آخر بحثا عن المدينة الفاضلة حتى وصل إلى مصر حيث كبار العلماء آنذاك وتفوق الحضارة المصرية .

« إذا ما شددت الرحال لإيثاكا فلتتمن أن يكون الطريق طويلا حافلا بالمغامرات ، مليئا بالمعارف . لا تخش الفيلان والمردة وإله البحر الغاضب فإنك لن تلقاها فى طريقك مادام فكرك ساميا ، والعاطفة الخالصة تقود روحك وجسدك .

واذهب إلى مدائن مصرية كثيرة لتتعلم وتتعلم من الجهابذة . .

لتكن « إيثاكا » فى فكرك دائما ، والوصول إليها هو مقصدك . ولكن لا تتعجل فى سيرك . الأفضل أن يقوم السفر سنين عديدة وأن تصل إلى الجزيرة عجوزا غنيا بما كسبته من الطريق . لا تتوقع أن تمنحك « إيثاكا » ثراء » .

ولفتت الباحثة ريسفا أنظار القراء إلى تلك المصادر الأساسية التى زودت كافافيس بالمعرفة التاريخية الدقيقة ، فذكرت (تاريخ الأمة الهلينية منذ أقدم العصور حتى أيامنا) للكاتب اليونانى قسطنطين بابار بيجوبولوس (١٨١٥ - ١٨٦١) ، وأشارت إلى أن الكتاب قد صدر فى خمسة أجزاء من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٧٤ ، أى أنه قدم فى نسق متكامل الوحدة التاريخية للأمة اليونانية . ذلك أن القضية الوطنية كانت تحتل فى القرن التاسع عشر مركز الهم الثقافى والسياسى الأول عند الشعب اليونانى ، ولم يكن هناك أمر آخر يعنى اليونانيين سوى استرداد الأراضى المحتلة واستعادة المملكة الهلينية . كذلك لم تكن « المسألة اليونانية » منذ مولد المملكة اليونانية حتى الحرب العالمية الأولى سوى فصل من فصول كتاب « المسألة الشرقية » ألفه الصراع الدائر بين بريطانيا والغرب من جهة وبين روسيا من جهة ثانية . أما بريطانيا العظمى وموقفها من مسألة الشرق فكان أساس السياسة الخارجية اليونانية نتيجة سيطرة بريطانيا على أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط كافة منذ مستهل القرن التاسع عشر ، وتحكمها شبه المطلق فى مجرى الاقتصاد اليونانى عبر اللجنة الدولية لمراقبة الشئون المالية اليونانية .

على أنه ظهرت نهضة وطنية كبرى ، وولدت المقاومة البلغارية المجاورة ، وتفاقمت انتفاضة جزر الكريت التى تم ضمها إلى اليونان عام ١٩٠٨ رغم أنف بريطانيا وغيرها من القوى الأوروبية الكبرى ، وتمرد شعب أثينا عام ١٩٠٩ ضد سلطة القصر . ثم توج وصول « اليوفير فينيزيلوس » إلى رأس السلطة فى البلاد العاصفة الجارية منذ مطلع القرن لتطهير الحياة السياسية من الفساد .

وما لبث أن عاد الملك إلى مركز السلطة بعد فشل الانتخابات العامة الحرة فى ١٩٢٠ ، وتخلى الحلفاء عن اليونان إثر هزيمة الجيش فى ١٩٢١ فى معركة آسيا الصغرى ، على نحو أعنف من هزيمة ١٨٩٧ أمام الأتراك .

فكتب كافافيس : (أولئك الذين حاربوا من أجل الوحدة الأيونية) :

« يا أيها الشجعان الذين حاربوا دون أن يخشوا أولئك الذين خرجوا من كل الحروب منتصرين ولا تثريب عليكم إن كنتم قد هزمتم ، فلم يكن الخطأ منكم وبكل إباء وجلال أهزمكم .

فإذا أراد أهل اليونان أن يفخروا بأمجادهم يوما ، سوف يذكرونكم قائلين « هؤلاء بنو قومنا ، انظروا إلى أفعالهم » .

وحتى عام ١٩٣٢ سيظل الإبداع الشعرى عند كافافيس محكوما بقاعدة شكوك ما بعد الحرب السابقة بكل ما يحتويه من قلق خفى واهتزاز عميق وحيرة قوية فى استقرار البناء السياسى والاجتماعى اليونانى والمصرى والعالمى .

لذلك يستحضر كافافيس نماذج السياسة من الماضى المجيد ، وأحداث التاريخ البائد ، وينأى عن مجرى الأحداث الدائرة حوله ليستخلص العبر وينحت الرموز ويصوغ الثوابت والفكر .

فحينما نتناول « الحقيقة اليونانية » يبدو ضروريا الانتباه إلى أمر بالغ الأهمية يخص مولد الدولة اليونانية الحديثة . فقد تكونت بعد حرب التحرير (١٨٢١ - ١٨٢٧) وطرد الاحتلال المتتالى لأراضٍ أسماها الاستعمار « الأراضى المنضمة » ، إشارة إلى الأراضى التى ضمت بعد أن كثر فيها السكان اليونانيون ، وبعدما تم فصلها عن دائرة السيطرة العثمانية .

وتميز اليونانيون المشردون عن اليونانيين جميعا بشعور وطنى يونانى بالغ الحساسية والقوة والوهج ، وكانوا يعيشون منذ القرن الماضى حكم « الفكرة اليونانية العظمى » وحتمية احتضان الدولة اليونانية لكافة التيارات الهلينية .

وبالرغم من موقف كافافيس الذى وقفه ضد التيارات اللاعقلانية فى السياسة ، وبالرغم من شكوكه وانتقاداته العنيفة لفلسفات « الروح اليونانية » ، فقد حمل بداخله شعورا محوره : لقد ظلم التاريخ بظلم اليونان وجرحها على طول تطورها وعرضه .

عشق الروح اليونانية وفكر بأسلوب عقلانى فى الوقت نفسه ، فتمزق بين الانحطاط الواقع وبين الازدهار المنقرض .

ولم يندفع كافافيس نحو النظرة العنصرية إلى العالم رغم إيمانه بالوحدة الهلينية واستمرارها عبر التاريخ . ولا تعنى كلمة

« النوع » فى شعره « العنصر » وإنما تعنى « الأمة » ، كما استخدمها الشاعر ريجاس فيليستينليس (١٧٥٧ - ١٧٩٨) ، وكل عصر التنوير اليونانى للدلالة على ضرورة تحرير كافة الشعوب على وجه الأرض ، لا الشعب اليونانى وحده . وخير إشارة إلى هذه النزعة الإنسانية العامة تجدها فى قصيدة عنوانها (فى عام ٢٠٠ قبل الميلاد) :

« من هذه الحملة اليونانية الشاملة ، المنصورة ، الباهرة ، التى طبقت شهرتها الآفاق ولم يدان أى نصر فى الشهرة نصرها .

من هذه الحملة التى لم يسبق لها مثيل ، خرجنا نحن السكندريين ، مع أهل أنطاكية وربوع الشام وعديد غيرنا من يونانيى مصر وسورية وأولئك الذين فى بلاد الفرس وميديه وسائر الآخرين كلهم .

أخرجنا عالمنا اليونانى الجديد شاخا بأقاليمنا الواسعة وأنشطتنا المتنوعة وتحررنا الفكرى ، ولغتنا اليونانية الواحدة التى حملناها حتى ماكتريا بل وإلى الهنود نقلناها » .

ولا تعنى الدعوة إلى بناء « العالم اليونانى الجديد » العودة إلى العالم القديم أو إلى العصر الكلاسيكى ، حيث كانت اليونان مفككة إلى عدة دويلات تسودها الروح الإقليمية الانفصالية .

وليست « الأنشطة المتنوعة » المؤسسة على قاعدة التحرر الفكرى سوى الإشارة إلى بناء مجتمع تنسجه كافة التيارات والآراء والمؤثرات التى تجاوز باللغة اليونانية ، اللغة العالمية المشتركة المقبلة .

ومن هنا الاقتراب الشديد لمفهوم كافافيس من تصور Iso-crate ، ونظرته إلى السيادة اليونانية على الكون : « نعتبر المرء يونانيا حينما يشاركنا ثقافتنا » أى أن المعيار هو القرابة الثقافية أو الروحية ، لا قرابة الدم أو قرابة العنصر أو الانتماء العرقى .

وليست مصادفة أن يمتلك كافافيس مفهوما ثقافيا لا عنصريا لسيادة اليونان على العالم .

مصادفة كذلك ألا يكون من دعاة المركزية الهلينية التى هى أقرب إلى الوطنية الضيقة ، أشبه ما تكون بالشوفينية والتطرف العرقى . فقد عاش فترات التكوين الأولى فى إنجلترا ثم رحل إلى الإسكندرية حيث البيئة الثقافية والسياسية المنفتحة على الأجناس والأعراق والطوائف والأديان والمذاهب كافة ، وعلى كبريات المشاكل الدولية ، وكانت الإسكندرية هلينية على نحو من الأنحاء ، متنوعة الجاليات ومبنية على نسق شديد الفرادة ، تحكمها حضارة السوق الواحد والاقتصاد العالمى الواحد .

ومن جانب آخر ، ظل شاعر الإسكندرية تحت سيطرة الشعور الحاد بانحطاط الأوضاع وبهشاشة الإمبراطوريات من الأثينية إلى الفارسية والرومانية والبيزنطية والعثمانية . كما ظل يتأمل زوال الدولة المقدونية وانقراض النظم الملكية الهلينية وضياع إسبارطة . فكتب عام ١٩٨٩ (الصراع البحرى) ، تلك القصيدة التى يشعر فيها بأن أية سياسة إمبريالية تفضى بالضرورة إلى كارثة مجتمعية شاملة ، كما يبين ذلك من خلال ما آلت إليه هزيمة الفرس عام ٤٨٠ قبل الميلاد وما جاء فى مسرحية (الفرس) لإسخيلوس ، أحد أعظم شعراء التراجيديا اليونانية القديمة . كذلك فى مقدورنا استقراء الفكرة نفسها من (معركة مينيسيا) عام (١٩١٥) حيث يومىء إلى سبب زوال الدولة المقدونية على يد الملك المقدونى فيليب .

« يلعب النرد هذه الليلة ، ويطلب التسلية .

على المائدة ، ضعوا وردا مثيرا . فماذا لو كان أنتيوفس الملك السورى فى مينيسيا قد انهزم ؟ يقولون إن جزءا كبيرا من جيشه سحق ، ربما كانوا يبالغون فى ذلك قليلا ، فليس بالإمكان أن يكون ذلك كله صحيحا . ولنأمل فى ذلك ، فهم وإن كانوا غير موالين لنا ، ينتمون إلى شعبنا .

بالطبع ، لن يؤجل فيليب الاحتفال .

فمهما كان قد مضى فى حياة قاسية . إلا أنه احتفظ بشىء طيب ، ذاكرة « صاحية » . ولكن يذكر كيف أكتفى أهل سوريا بالبكاء ، عندما تلقت مقدونية ، الوطن الأم فى الحرب من قبل ، شر هزيمة وتحطمت .

إلى العشاء أيها العبيد أضيئوا الشريات واعزفوا الموسيقى » .

وكانت مينيسيا مدينة يونانية موقعها اسيا الصغرى على مرمى حجر من المكان الذى انتصر فيه الرومان سنة ١٩١ قبل الميلاد على ملك سوريا ، وابتدأوا منذ ذلك الحين السيادة المطلقة على

الشرق الهلينى ، وهو الأمر الذى لم يره فيليب المقدونى ، المسند ، صاحب البصيرة الضيقة ، والحقد العجيب ، واللامبالاة الكاملة ، مما كانت تعنيه معركة مينيسيا من حرب من أجل بقاء الروح الهلينية .

ومن ناحية أخرى ، كان كافافيس فى شبابه فى حيرة دائمة بين مصر وإنجلترا وتركيا واليونان ، فقد كان يتردد على بورصة القطن ، حيث أصداء الأزمات العالمية وتأثيرها فى مجرى الأسعار ، واكتشف القواسم المشتركة بين « السلام » بالمفهوم البريطانى وبين « السلام » بالمعنى الرومانى ، ولاحظ بجلاء تفكيك الخلافة العثمانية وفشل الجهود المبذولة من قبل الملوك التابعين فى سبيل الحرية والممارسة الحرة لسيادتهم وتحصين سيادة البلاد . ومثل هؤلاء الملوك الملك ديمتريوس سويتروس (١٦٢ ــ ١٥٠ قبل الميلاد) حفيد انتيوخوس الثالث الأكبر الذى قتل على أيدى الرومان فى معركة مينيسيا عام ١٩٠ قبل الميلاد . أيضا ابن الملك فيفوباتور ، وريث التاج السورى ، طرد من الحكم لصالح حفنة من المغامرين المفتونين بالروح السلفية . تقول القصيدة التى تحمل اسمه (عن ديمتريوس سوتيروس) (١٦٢ ــ ١٥٠ قبل الميلاد) :

« خاب أمله فى كل ما يريده .

كثيرا ما تخيل نفسه ينجز أعمالا جساما ، تنهى الذى ذاقته بلاده منذ معركة الهزيمة . تخيل نفسه ، وقد أعاد سوريا من جديد دولة ذات نفوذ ، بجيوشها ، وأساطيلها وثرواتها وبقلاعها الضخام » .

(ثم يرى الشاعر حلم بإعادة إمبراطورية بيزنطية يقودها حاكم يونانى :

« وقد عانى فى روما كثيرا ، وذاق كؤوس المرارة كلما لمس فى أحاديث الندامى رغم أدبهم الجم ، وبالغ رقتهم نحوه ، إذ كان شابا من أسرة كبيرة ، ابنا للملك السورى فيلوباتوز ــ كما لمس ، رغم هذا ، شعورا خفيا بالاحتقار للأسر المالكة اليونانية على الدوام يؤكدون أن دولتها زالت وما عاد ملوكها صالحين لشىء جاد ، بل صاروا حتى عن الإمساك بمقاليد الحكم عاجزين » .

واستاء شاعر الإسكندرية من عجز الملوك الخونة ووصولهم إلى حد السفر « سيرا » على الأقدام ، كما تقول قصيدة « أوجه استياء الملك السورى » :

« استاء ديمتريوس ، الملك السورى ، عندما بلغه أن أحد الملوك البطالسة وصل إلى روما فى حالة يرثى لها ، سائرا على قدميه ، رث الثياب وغير مصطحب من الخدم سوى أربعة .

سوف تضحى الأسرة المالكة بأسرها لأجل هذا ، مضغة للأفواه فى روما ومثاراً لسخرية لا ينضب هناك معينها . يعرف الملك السورى جيداً أنهم جميعاً أصبحوا خداماً للرومان ورهن إشارتهم ، يخلفونهم عن عروشهم حينما يحلو لهم . هذا يعرفه أيضا » .

وبالطبع لا يستثنى كافافيس حال مصر قبل الاستقلال من هذا التوجه العام لخدمة الأجنبى .

وربما تكون هناك محاور عديدة مضمرة أو صريحة حول علاقة المثقف بسلطات مختلفة كسلطة الرأى العام ، أو السلطة الدينية أو سلطة الأب والرجل والمعلم أو سلطة القيم الشائعة والأعراف السائدة والتقاليد والعادات ، أما كافافيس فيحدد مفهومه لعلاقة المثقف بالسلطة من وجهة نظر ثنائية البنية تتعلق فى الحالين بسلطة الحاكم .

فعلى الحاكم أولا أن يصون حقوق المواطن ويضمنها ويحترمها . وإذا أردنا العودة إلى شعر كافافيس رجعنا إلى قصيدة « خصائص » (١٨٩٥) .

وعليه ثانيا ألا يتحول إلى طاغية كما يبدو ذلك فى قصيدة (مرزبة) التى كتبها فى يوليو ١٩٠٥ ونشرها فى يونيو ١٩١٠ ، عام التغير الحاسم فى حياة كافافيس الشعرية ، حيث عاد إلى أصول الفكر اليونانى وصور الديمقراطية على أنها نظام عظيم يشارك فيه الناس مباشرة فى صناعة القرار السياسى والدبلوماسى ، تماما كما يحق لهم المشاركة فى التمثيل المسرحى والفوز بالجوائز الثقافية الكبرى .

لذلك ، كان كافافيس صاحب حس سياسى رفيع المستوى حاد البصيرة ، لكنه لم يبلور رؤية سياسية واضحة تمام الوضوح

أو فلسفة سياسية محددة المعالم أو العناصر أو القوالب . ولم يصغ نظرية فى السياسة مبنية بناء متماسكا مكتملا ، فقط اعتبر الرؤية القدرية للكون رؤية مرفوضة رفضا مسبقا واضحا ، هذا الرفض المسبق من أسس « حسه » السياسى المرهف .

وهو رفض أشار إليه فى قصيدة (الذى أقدم على الرفض الحاسم) ، لا ليومىء إلى السلبية الكاملة بل إلى ضرورة اتخاذ الموقف ؛ لأن الآلهة قد تخلت عن الإنسان إلى غير رجوع كما تقول قصيدة (عندما تخلت الآلهة عن أنطونيوس) .

أما قصيدة (الذى أقدم على الرفض الحاسم) فتقول :

« يأتى يوم على الناس عليهم فيه أن يتخذوا القرار الحاسم ، فيقولوا « نعم » ويقولوا « لا » والمرء الذى تكون « نعم » جاهزة فى أعماقه يبرز توا . وإذ يقولها يمضى فى طريق الشرق مؤمنا .

ومن يقول « لا » لا يندم . ولو سئل ثانية لقال « لا » من جديد ولكن ذلك الرفض ، مع صوابه يهدمه طوال حياته .

يقول كافافيس « لا » بحسم للسلطة فى حد ذاتها ، وللسلطة الاستبدادية من حيث الجوهر ، وللعدوان الخارجى من حيث المبدأ ، مما يوضح مفهومه فى العدالة .

فالعدالة عنده شديدة العمومية تشمل « هارمونية » الكون وقوانين الميكانيكا السماوية اليونانية القديمة وضرورة ضم قبرص إلى اليونان (١٨٩٦) وطلب إعادة الآثار اليونانية إلى البلاد (١٨٩١) واسترداد الأمة المصرية لسيادتها والفلاح المصرى لحريته .

وقد ترجم دفاعه عن العدالة الاجتماعية أو العدل الاجتماعى بين ١٩٠٩ وبين ١٩١٨ بتفرغه الكامل لمجلتين كانتا تصدران فى الإسكندرية تحت عنوان « جراماتا » (الآداب) ودتيازويه (الحياة الجديدة) تحت إشراف جورج سكليروس مؤلف (مشكلتنا الاجتماعية) (١٩٠٧) و (مشكلات الهيلينية المعاصرة) (١٩١٩) أحد قادة الإيديولوجيا الاشتراكية آنذاك .

ولم يتجاوز الشاعر حدود هاتين المجلتين إلى العمل السياسى المباشر لتطبيق فكره الاشتراكى ، مما أثار عنده نوعا من أنواع الأسف المر ، وشكلاً من أشكال الوعى بالعجز ، وبالتالى جعله يقتحم غمار الحياة السياسية العملية بل اعتزل تماما الحياة السياسية بكافة مستوياتها وصراعاتها . ولم ير فى السلطة وسيلة لتحقيق أحلامه الاجتماعية . كما أنه لم يفكر قط فى ارتقاء المناصب السياسية أو الوزارية .

على أنه واجه الإدارة الاستعمارية البريطانية فى مصر ، وكتب قصيدة لم تنشر بعد فى اللغة الفرنسية أو العربية عنوانها (٢٧ يونيه ١٩٠٦ الساعة الثانية بعد الظهر) يروى فيها قصة أم تبكى ابنها بعد أن قرر المستعمرون إعدامه . كذلك تشير قصيدة (إيميليانوس مونائى ، السكندرى ٦٢٨ - ٦٥٥ ميلادية) إلى واقع الحياة المصرية فى ذلك الوقت .

« بكلام وتظاهر ، وأنا بيدى سأضع لنفسى درعا فائقا أواجه به الأشرار دون أن يتنابنى منهم خوف أو خوار .

سيريدون الإضرار بى ، ولكن ما من أحد يقربنى ، سيعرف أين تكمن جراحى وأين نقاط الضعف تحت درع الخداع الذى أرتديه .

بهذا راح الميليانوس مونائى يتفاخر ، ترى هل صنع هذا الدرع لنفسه حقا واحتمى به ، إنه لم يرتده طويلا ، على أى حال ، ففى السابعة والعشرين من عمره أدركته المنية فى صقلية » .

وشغلت قضية التبعية السياسية لقوى خارجية مركز اهتمام كافافيس وفكره السياسى ، فقد كتب قصيدة (ديماراتوس) فى أغسطس ١٩٠٤ وأعاد صياغتها فى نوفمبر ١٩١١ ثم نشرها فى سبتمبر ١٩٢١ . هذا مطلعها :

« شخصية ديماراتوس » كانت الموضوع الذى اقترحه عليه بورفيريوس للمحاورة وقد أوجز السفسطائى الشاب موضوعه فيما يلى (مزمعا أن يعود إليه بمزيد من التفصيل فى أطروحة قادمة) .

« فى البداية ، انضم إلى حاشية الملك داريوس ، ويسير بعده إلى حاشية الملك كسيرلسيس ، الذى هو الآن فى معيته يرافقه فى حملته .

أخيرا سوف يرد إلى ديماراتوس اعتباره .

لحقه ظلم كبير . كان ابنا لأريستون . وباللعار ، رشا

خصومه العرافين ولم يكفهم أن حرموه من ملك أبيه ، وإنما عندما رضخ وانصاع لهم ، مقررا أن يحيا فى صبر وأناة مثل مواطن عادى ، شتموه أيضا أمام الناس وحقروا من شأنه فى المهرجان . ولهذا ، فهو يخدم كسيركسيس بحماسة ، فمع الجيش الفارسى سوف يعود إلى سبارطة .

وإذا أصبح ملكا مثلما كان فى سالف الأوان ، سوف يطرد ذلك النذل ليوتيخديذيس فورا ، وسوف يعرضه أمام الملأ لأشد الإهانات . ويمضى أيامه مفعما بالقلق مقدما للفرس نصائحه شارحا لهم ماذا يجب أن يفعلوا لغزو اليونان » .

وفى موضع آخر ، فى قصيدة (محب الهلينية) التى كتبها فى يوليو ١٩٠٦ ونشرها فى أبريل ١٩١٢ يعاود كافافيس النقد الصريح والساخر للأنظمة التابعة وتأثيرها على نفوس الناس فى ظل السيطرة الرومانية .

« واحرص على التأكد من أن النقش على الحجر قد أدى بمهارة ، وأن التعبير على الوجوه رصين ومهاب . وأفضل أن يكون التاج طبيعيا بعض الشىء ، لا أحب ذلك النوع من التيجان المألوف فى ممالك آسيا الغربية .

يجب أن تكون الكتابة اليونانية كالمعتاد . لا مبالغات أو إطراءات طنانة ، لا نريد أن يأخذ حاكم الولاية الأمر على محمل سىء ، فهو على الدوام يتشمم ويبعث إلى روما بالتقارير - ولكن العبارة يجب أن تصف بالطبع كرما استحقه .

وأهيب بك أن تحرص قبل كل شىء (وإنى أستحلفك بالله لا تدعهم ينسون ذلك) أن يضعوا « الملك » و « المخلص » - وأن يضعوا لقب « عجب للهلينية » وذلك بأحرف رشيقة .

والآن لا تحاول أن تمارس علىّ ذكاءك بأسئلة مثل « وأين هم الهلينيون » ؟ أو « أى هيلينية بقيت هنا على مشارف زاغروس أو هناك فيما بعد الفرات » ؟

إن العديدين غيرى ، ممن هم أكثر منا بربرية اختاروا أن يكتبوا أسماءهم مقرونة بذلك ، فما الضير لو نكتبه هكذا نحن أيضا » .

وعن اللعبة السياسية وراء الكواليس ، يرى كافافيس أنه غالبا مالا يكترث الحكام للحقيقة ولا يعبأون بمصارحة الشعوب بمجرى الأمور ولا يبالون بالشفافية بينهم وبين الناس .

فتذكرنا الباحثة بقصيدة (عام ٣١ قبل الميلاد فى الإسكندرية) المنشورة فى ١٩٢٤ والمكتوبة قبل ذلك التاريخ عام ١٩١٧ :

« وصل البائع الجوال من قرية على مشارف المدينة وفى الشوارع راح ينادى على « بخور » و « زيتون » ممتاز و « عطور للشعر » و « لبان » .

ولكن أنّى للضجيج وصخب الموسيقات والمواكب أن يتيح لأحد سماع نداءات البائع الجوال .

الجموع تدفعه بالمناكب . تجرفه فى طريقها . تلقى به أرضا . وإذ تطبق عليه الحيرة ينتهى به الأمر أن يسأل مرتبكا ما معنى هذا الجنون الذى يجرى هنا ويلقى واحد من الجموع إليه بدوره الأكذوبة الضخمة التى روجها القصر :

إن أنطونيوس يمضى هناك فى اليونان من نصر إلى نصر » .

وبالطبع أوكتاف هو الذى انتصر أمام أنطونيوس وكليوباترا التى ذهبت إلى حد ترتيب عودة احتفالية إلى بلادها . وخدعه أنصار أنطونيوس أنفسهم والشعب حينما عادوا وأعلنوا على الملأ انتصارهم الوهمى فى معركة اكتيوم .

ذلك أن الحكومة التابعة والسياسات التابعة لا تجذب سوى المنافقين .

فتقول قصيدة غير منشورة كتبت فى يونيه عام ١٩١٧ تحت عنوان (العيد الكبير عند سوسيبيوس) .

« . . يتوجب علينا جميعا أن نعود من جديد إلى مناوراتنا ومؤامراتنا لكى نستعيد صراعنا السياسى الممل » .

أما قصيدة « من مدرسة الفيلسوف المشهور » (١٩٢١) فتبدو أكثر وضوحا فى الإشارة إلى استياء كافافيس من التبعية فى الحكم :

« . . كان الحاكم أحمق ، وأولئك من حوله دمى رسمية بوجوه جهمة » .

فالخبثاء والمحتالون والنصابون والمنافقون والمخادعون والكذابون وعديمو الشرف والكلمة ، هم جنود الحكم التابع ،

أما أولئك الذين لا يتنقلون من موقع إلى آخر فلا يرتقون المناصب العامة ولا يفوزون بأى حال من الأحوال برضى الحاكم ، هكذا يحدس كافافيس .

ومن بين القصائد التى تومىء إلى موقف كافافيس هذا من تفاهة السلطة وهشاشتها قصيدة (الملك ديمتريوس) التى كتبها فى أغسطس ١٩٠٠ ونشرها عام ١٩٠٦ ، مستلهما فيها شخصية ديمتريوس بوليورخيتيس ملك مقدونيا المخلوع عن العرش عام ٢٩٤ قبل الميلاد لعدم اكتراثه بالملك ، فراح يخلع بالإضافة إلى عرشه جلبابه الموشى بالذهب ، وألقى بخفه القرمزى ليرتدى مسرعا ثوبا بسيطا تأهبا للرحيل بمنأى عن السلطة .

وفى « ملوك الاسكندرية » إيماءة واضحة إلى تفاهة السلطة وسطحيتها ؛ فقد كان أهل الإسكندرية ، كما يقول كافافيس ، يدركون أن مراسم تتويج أبناء كليوباترا « أقوال فى تمثيلية » ويعرفون كم هى جوفاء .

الدلالة نفسها نستطيع استقراءها من « نهاية نيرون » التى كتبها فى ديسمبر ١٩١٥ ونشرها على وجه التقريب فى مايو ١٩١٨ . فقد كانت أيام إقامته بعيدا عن روما أيام متعة كلها فى المسارح والحدائق والملاعب والأجساد العارية وأمسيات مدينة أخياس ، بينما راح ملك إسبانيا يدرب جيشه ويجمعه للانقضاض على نيرون .

ويستخلص كافافيس من تلك التجارب الفنية قانونا عاما ؛ يفيد أن الإنسان ينزلق فى السلطة مهما كانت هذه السلطة ، ضعيفة أو مغتصبة أو طاغية .

لكن استخلاص كافافيس لبعض القوانين لا يدل فى حد ذاته على أننا نستطيع أن نؤطر فكره السياسى ضمن صورة دقيقة محكمة تمام الإحكام محددة تمام التحديد .

بل الأقرب للدقة أن نتحدث عن « الحس » السياسى أو « الحساسية » السياسية عند كافافيس ، ومن العسير جدا أن نقول إن لديه « أفكارا » سياسية .

فهو ، كأى مواطن يونانى شريف ، يفكر فى مصير الأمة وعظمة اليونان القديمة والسكندرية والوسيطة . ومن البديهى أن تعنيه قضية الهلينية والهزائم المتتالية والانحطاط الحتمى للنظم الملكية وزوال الإمبراطورية البيزنطية وتراجع اليونان إلى مجرد دولة بلقانية صغيرة .

غير أن كافافيس يتميز عن غيره من الكتاب اليونانيين وغير اليونانيين ، المعاصرين له والسابقين عليه ، بأنه لم يناصر فكرة المركزية .

إن كافافيس ابن القسطنطينية عاصمة بيزنطة القديمة والإمبراطورية المترامية الأطراف والأعراق والأعراف والمذاهب والطوائف والأديان واللغات والأجناس والثقافات .

كذلك هو ابن الإسكندرية ، مركز من مراكز الحضارة الهلينية الساحرة ، وجزء لا يتجزأ من الثقافة الإنجليزية .

وتميز شاعر الإسكندرية بقدرة عالية المستوى على ربط اليونان بسياق حوض البحر الأبيض المتوسط . ويربط بينها وبين حركة التطور العالمى .

وينطبق أخيرا عليه قوله هو نفسه بأن « الحكماء يبصرون ما هو وشيك الحدوث » (١٩١٥) .

فهو سياسى بمعنى إدراكه الحدسى بما هو وشيك الحدوث ، وبصيرته الثاقبة لمستقبل الأمور الممزوجة بعمل شاق ودراسة طويلة وفهم متعقل وتأمل عميق .